من ظرفاء العصر العباسي :

أبو دلامـــــة ! ...

توفي سنة ١٦١ هـ

للأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

- ١ -

اسم هـذا الظريف زَنْد بن الجَوْن ، و « أكثر الناس — كما قال صاحب الأغاني[1] — يصحف اسمه فيقول : « زيد » بالياء ، وذلك خطأ ... إنما هو زند بالنون » . وإنما سلكناه في عداد الظرفاء العباسيين — مع أنه أدرك في شبابه آخر عهود بني أمية — لأنه لم يكن له في أيامهم نباهة ، ولم يذع له في عصور خلفائهم صيت ، فما نبغ واشتهر إلا في أيام بني العباس ، إذ انقطع إلى أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور والمهدي ، فكانوا يقدمونه في الجامع ، ويصلونه أحسن الصلات ، ويستطيبون مجالسته ، ويستعذبون نوادره[2] .

وإذا كانت المراجع التي بين أيدينا لم تلق ضوءاً كافياً على مولد هذا الظريف ، ففي وسعنا أن نستنبط ذلك من خلال السطور ، فهو لم ينسب إلى الكوفة إلا لمولده فيها أو نشأته بها على الأقل . وهو — بلا ريب — لم يدرك آخر أيام بني أمية طفلا لا يعي شيئاً لأننا سنرى في نوادره وطرائفه ما يشير إلى أنه بلغ سن الشيخوخة بعد أن عاش في ظلال الدولة العباسية وحدها تسعة وعشرين عاماً : إذ حضر خلافة السفاح التي دامت أربع سنوات وتسعة أشهر[3] ثم خلافة المنصور التي دامت اثنتين وعشرين سنة هلالية إلا ستة أيام[4] ، ثم شهد من خلافة المهدي ما يقارب ثلاث سنوات توفي على آثرها سنة إحدى وستين ومائة[5] .

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ج ١٠ ص ٢٣٥ طبعة دار الكتب المصرية
(٢) في المرجع ذاته ، الصفحة ذاتها وفي معجم الأدباء لياقوت ج ١١ ص ١٦٦
(٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) الخضري ص ٧٣ الطبعة الثالثة . (٤) المرجع ذاته ص ١١٧
(٥) معجم الأدباء ج ١١ ص ١٦٦ . ولقد وقع سهو في هذه الصفحة يحسن التنبيه إليه ، فيها أن أبا دلامة مات في خلافة المهدي سنة إحدى وسبعين ومائتين ، مع أن المعلوم أن المهدي نفسه مات سنة تسع وستين ومائة

ولكي نقبل أنه بلغ سن الشيخوخة يحسن بنا أن نفترض أن أبا دلامة ولد بين سنة مائة — ومائة وخمسة ، فقضى طفولته وصباه وشبابه حتى بلغ الثلاثين — أو الخامس والعشرين — في أواخر العصر الأموي ثم أمضى ما تبقى من عمره في أيام السفاح والمنصور والمهدي .

ولم يوصف لنا أبو دلامة بأكثر من أنه كان أسود ، بيد أنه اضطر — مرتقبه — في مجلس حافل إلى وصف خلقه بشعر يجعلنا موقنين بأنه كان على جانب من الدمامة عظيم :

دخل على المهدي يوماً وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعباس بن محمد ومحمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بني هاشم . فقال له المهدي : أنا أعطي الله عهداً لئن لم تهج واحداً ممن في البيت لأقطعن لسانك — وفي رواية لأضربن عنقك — فنظر إليه القوم ، فكلما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليه رضاه ... قال أبو دلامة : فعلمت أني قد وقعت وأنها عزمة من عزماته لابد منها ، فلم أر أحداً أحق بالهجاء مني ، ولا أدعى إلى السلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

ألا أبلغ إليك أبا دلامه   فليس من الكرام ولا كرامه
إذا لبس العمامة كان قرداً   وخنزيراً إذا نزع العمامه
جمعت دمامة وجمعت لؤماً   كذاك اللؤم تتبعه الدمامه
فإن تك قد أصبت نعيم دنيا   فلا تفرح فقد دنت القيامه

فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازه[1]

وما أحسبه رضي أن يسلك هذا المسلك في هجاء نفسه لمجرد التخلص من هذا الموقف الحرج الذي أوقعه فيه الخليفة المهدي ، فقد كان في مكنته أن يحسن التخلص بما لا يؤذي نفسه أو يجرح كرامته ، ولكن هـذا النوع من الناس قلما يكترث بتلك المظاهر التي يقيم لها المجتمع أكبر الوزن ، لأنه — لشدة صراحته — يصف حقائق نفسه مكشوفة مفضوحة .

ولو ظننا أبا دلامة مغروراً يحسب أنه في الجمال بدر مشرق وهو مشوه كالقرد ، قذر كالخنزير ، فهل يمنع غروره الناس من وصفه بأنه جمع الدمامة كلها مادامت أعينهم لم تكن تقع منه إلا على رأس كرأس الدب في ضخامته ، وعيون كعيون الحرباء

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٠٨ .

من الضيق ، وأنف نارض[1] في احديداب ، وشفتين منتفختين من الغلظ ، وعلى جسم مكتنز على قصر ، وذراعين مرتخيتين من الشحم ، وساقين مقوستين في تموج ... وليس الناس عمياً فيحتجب عنهم هذا الجمال الساحر في تقاطيع هذا المخلوق العجيب!

لكن أبا دلامة كان من الدهاء بحيث لم يفسح للآخرين مجالاً لوصف خلقه والشماتة به والضحك منه فأظهر الناس على حقيقة نفسه ليقطع عليهم سبيل السخرية اللاذعة التي تجد في دمامة المخلوق باعثاً على مواصلة التهكم والازدراء .

وهذا الأسلوب الذي نهجه أبو دلامة في إظهار الناس على مدى بشاعته وفر عليه كثيراً من مفارقات غلاظ القلوب ، ومن سخافات صلاب الأفئدة ، إذا ما كانوا ليجدوا في هجائه وصفاً ملامته أعنف من وصفه .

والإنسان إذا سمع ما حكم به على نفسه رضي بحكمه ، وإن سمع ما حكم به عليه سواه لم يرضه منه إلا ما يتفق مع عزته ، ولا يتنافى وكرامته .

والذي يعنينا مما سبق أن هذا الظريف قد جمع إلى سواد لونه دمامة شكله ، ولكن الله عوضه من هذا النقص لساناً حلو الحديث ، رائع البيان ، قوي البرهان .

ونعرف أنه كان مولى لبني أسد ، فقد كان أبوه « جَوْن » عبداً لفضافض الأسدي الذي أعتقه . فمن نسب أبا دلامة إلى بني أسد فإنما يقصد أنه كان أسدياً بالولاء . ولعلك تتسامح مع الذين وقعوا في هذه النسبة خطأً أو عفواً كأبي حيان التوحيدي في كتابه « الامتاع والمؤانسة »[2]

وإن الباحث لتأخذه الحيرة إذا ما استعرض حياة هذا الظريف إذ يتساءل كيف أمضى شبابه — حتى أواخر العصر الأموي — مغموراً لا يحس به أحد ، ولا يعرف له شعر ، ولا يطير له ذكر ؛ ثم وثب إلى الشهرة فجأة في أيام السفاح والمنصور والمهدي ، فأصبح ينادمهم ويداعبهم ولا يكاد ينقطع عن مجالسهم !

فأين كان قبل اتصاله بأبي العباس السفاح ؟ وأين ومتى وكيف نال العلم ؟

كل هذا مما أغفلته المراجع كأنها لا ترى فائدة في الإشارة إليه .

ونحن نحاول أن نرجح — على الأقل — أصوب الأجوبة على الأسئلة المتقدمة : فأبو دلامة كان في بلده « الكوفة » قبل اتصاله بالخلفاء العباسيين ، ولم يكن من السهل على مثله أن يتصل بمن كان قبلهم في تمس الخلافة بدمشق لبعد الشقة من ناحية ، ولانشغاله بتحصيل شيء من العلم وكسب قليل من القوت من ناحية أخرى ، ولأنه أيقن بأن بضاعته المنادمة والمداعبة ، وأن مثل هذه البضاعة مزجاة في أواخر أيام بني أمية التي كانت بركاناً يثور ، وزلزلة لا يقر لها قرار .

أما الأشخاص الذين طلب عليهم شيئاً من العلم فلم يكونوا من نباهة الذكر بحيث يفردهم الرواة من قبلنا أو نفردهم من بعدهم بالتخصيص ، بل لنا أن نحكم بأن أبا دلامة لا رواية له ، لأن معلوماته ليست نصوصاً تنقل ، وإنما كانت فكراً نابعة من ذكائه الوقاد ، وبديهته الحاضرة التي كانت تأذن لمن يسمعه أن يظن أنه على جانب من العلم عظيم !

والحق أن أبا دلامة كان من هؤلاء الظرفاء الذين عرفوا بخفة الروح ، ورشاقة النكتة ، ولطف الدعابة ، لا عن علم محفوظ ، ولا عن سند مقبول ، ولا عن استنباط للأصول . غير أنك إذا تلوت أشعاره طالعتك فيها قوة في السبك ورصانة في التعبير ، فتغزو قلبك الحيرة وتميل إلى الظن بغزارة علمه ، فنوفر عليك حيرتك ونؤكد لك أنه بلغ هذا كله بمواهب فطرية لا باجتهاد عمل ، فقد كان مطبوعاً على الشعر في سليقته ، يرسله متى شاء دون توقف ولا انقطاع .

* * *

وأظنك راغباً في معرفة سبب اشتهار هذا الظريف بأبي دلامة إذ تجد في هذه الكنية شيئاً من الطرافة ، والأمر أهون من هذا طرافة كنيته دعت إليها الصدفة المحضة التي وهبته ولداً سماه « دلامة » لأنه « كنى باسم جبل بأعلى مكة يقال له أبو دلامة كانت قريش تئد فيه البنات في الجاهلية » كما روى الأصبهاني في أغانيه[1] غافلا عن تصريحه — في مواضع من ترجمة هذا

(١) النارض من الأنوف الطويل .

(٢) ج ٣ ص ٧٤ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر . وقد صحح هذا الكتاب وضبطه وحققه وشرح غريبه ورتب فهارسه الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٣٧

الظريف — يذكر اسم ابنه « دلامة » وضروب عبثه مع أبيه !

ومن النوادر التي صرح فيها أبو الفرج بذكر دلامة بن هذا الظريف — قصة نذكرها على سبيل المثال ، ونقرأ فيها — في الوقت نفسه — شيئاً من نفسية أبي دلامة وابنه الخبيث :

حجت الخيزران ، فلما خرجت صاح بها أبو دلامة . قالت : سلوه ما أمره ؟ فقالوا له : ما أمرك ؟ فقال : ادنوني من محملها . قالت : ادنوه فأدني . فقال : أيتها السيدة إني شيخ كبير وأجرك في عظيم . قالت : فمه ؟ قال : تهبين لي جارية من جواريك تؤنسني وترفق بي وتريحني من عجوز عندي قد أكلت رفدي ، وأطالت كدي ، وقد عاف جلدي جلدها ، وتمنيت بعدها ، وتشوقت فقدها . فضحكت الخيزران وقالت : سوف آمر لك بما سألت . فلما رجعت تلقاها وذكرها ، وخرج معها إلى بغداد فأقام حتى قَرِض(١) . ثم دخل على أم عبيدة حاضنة موسى وهارون ، فدفع إليها رقعة قد كتبها إلى الخيزران فيها :

أبلغي سيدتي بالله يا أم عبيده
أنها أرشدها الله وإن كانت رشيده
وعدتني قبل أن تخرج للحج وليده
فتأنيت وأرسلت بعشرين قصيده
كلما أخلقن أخلفت لها أخرى جديده
ليس في بيتي لتمهيد فراشي من قعيده
غير عجفاء عجوز ساقها مثل القديده
وجهها أقبح من حوت طري في عصيده
ما حياة مع أنثى مثل عرسي بسعيده

فلما قرئت عليها الأبيات استعادتها منه لقوله « حوت طري في عصيده » وجعلت تضحك . ودعت بجارية من جواريها فائقة فقالت لها : خذي كل مالك في قصري ، ففعلت . ثم دعت ببعض الخدم وقالت له : سلمها إلى أبي دلامة . فانطلق الخادم بها ، فلم يصادفه في منزله . فقال لامرأته : إذا رجع فادفعها إليه وقولي له تقول لك السيدة ، أحسن صحبة هذه الجارية فقد آثرتك بها . فقالت له نعم . فلما خرج دخل ابنها دلامة فوجد أمه تبكي ، فسألها عن خبرها فأخبرته وقالت : إن أردت أن تبرني يوماً من الدهر فاليوم . فقال : قولي ما شئت فإني أفعله ، قالت تدخل عليها فتعلمها أنك مالكها وتطؤها فتحرم عليه ، وإلا ذهبت بعقله وجفاني وجفاك . ففعل ودخل إلى الجارية فوطئها ووافقها ذلك منه ، وخرج . ثم دخل أبو دلامة فقال لامرأته : أين الجارية ؟ قالت في ذلك البيت . فدخل إليها شيخ محطم ذاهب ، فمد يده إليها وذهب ليقبلها . فقالت له : مالك ويلك ! تنح عني وإلا لطمتك لطمة دققت منها أنفك . فقال لها : أبهذا أوصتك السيدة ؟ فقالت : إنها قد بعثت بي إلى فتى من حاله وهيئته كيت وكيت ، وقد كان عندي آنفاً ، ونال مني حاجته . فعلم أنه قد دهي من أم دلامة وابنها . فخرج إليه أبو دلامة فلطمه ولببه(١) وحلف ألا يفارقه إلا عند المهدي . فمضى به ملياً حتى وقف على باب المهدي فعرف خبره وأنه قد جاء بابنه على تلك الحالة فأمر بإدخاله . فلما دخل قال له : مالك ويلك ؟ قال : عمل بي هذا ابن الخبيثة ما لم يعمل ولد بأبيه ، ولا ترضيني إلا أن تقتله . فقال له ويلك ما فعل ؟ فأخبره الخبر . فضحك حتى استلقى ثم جلس . فقال أبو دلامة : أعجبك فعله فضحكت منه ؟ فقال : علي بالسيف والنطع . فقال له دلامة : قد سمعت حجته يا أمير المؤمنين فاسمع حجتي . قال : هات قال : هذا الشيخ أصفق الناس وجهاً ، (يلامس)(٢) أمي منذ أربعين ما غضبت ، (ولامست) جاريته مرة واحدة فغضب وصنع بي ما ترى ! فضحك المهدي أكثر من ضحكه الأول ، ثم قال : دعها له يا أبا دلامة وأنا أعطيك خيراً منها . قال : على أن تخبأها لي بين السماء والأرض ، وإلا (لامسها) كما لامس هذه . فتقدم إلى دلامة ألا يعاود بمثل فعله ، وحلف أنه إن عاود قتله ، ووهب له جارية أخرى كما وعده(٣)

إنها قصة طريفة كما رأيت ، وفيها تصريح بذكر دلامة (ابن شاعرنا الظريف) وتصريح بذكر أم دلامة زوجته الخبيثة فنفهم منها أولا إنما اشتهر هذا الظريف بأبي دلامة كما يشتهر

(١) قرض : مل وضجر . ومنه القرض : الملالة والضجر ، ويأتي بمعنى الشوق

(١) لببه : أخذ بتلابيبه جمع ثيابه عند صدره واشتد عليه في الخصومة

(٢) اللفظ ، في الأغاني ، مما ننزه القلم عن التعبير به ، وإنما تأدب بأدب القرآن (أو لامستم النساء) .

(٣) الأغاني ج ١٠ ص ٢٦٢

الآباء عادة بابنهم البكر ، لا لشيء آخر ، ونفهم منها — وهو الأم — شيئاً من نفسية هذا الظريف وابنه وزوجته .

فأما أبو دلامة فجريء يتدلل على أهل الخليفة ، ويصيح بالخيزران ويطلب ما يريد في غير ما خجل ، ويستبطئ الوعد فيؤكد غرضه بشعر يفيض بالدعابة حتى يجاب طلبه ، فترسل إليه تلك الجارية الحسناء التي طالما حلم بالوصول إلى مثيلاتها بعد أن مل امرأته التي أقعدها كبر السن عن تمهيد فراشه والقيام على خدمته . وأما دلامة فهو أصدق مثل للولد الخبيث الذي لا يرعى حرمة أبيه ولا يقيم له وزناً ، وإنما يسترسل في إيذائه وتعذيبه ، فيوافق أمه الماكرة على أن ينال حاجته من جارية أبيه كأنه لا يجد خيراً من هــذا ليبر أمه . ثم تراه أمام الخليفة المهدي يدافع عن نفسه دفاعاً مضحكا ، فهو لم يقض تلك الحاجة مع الجارية الحسناء إلا بعد أن قضى أبوه مع أمه أربعين سنة ، ويصف مع ذلك اباه بأنه أسمج الناس وجها . فما أهون — بعد هذا — جميع الأوصاف التي يلصقها ابن بأبيه ! وأما أم دلامة فيالها من عجوز شمطاء ، سليطة اللسان ، خبيثة النفس ، عرفت الأسلوب الذي تستطيع به إلزام زوجها بما تشاء ، فاستعملت ولدها في إيذاء أبيه . وهكذا نرى أن بيت أبي دلامة جمع أنواع الدعابة وأسباب الطرافة ؛ في الأب والأم والولد ، وكأنما خلق الله كل واحد من هؤلاء الثلاثة لكي ينسجم مع الآخرين ، ولقد كان الانسجام من توثق العرى بحيث أنه جعل ما يصدر من أي واحد منهم مفهوماً للآخرين لا يستغربه أحد منهما وإن أضحك الناس زمناً طويلا .

ولكي يتضح لك هذا الانسجام العجيب بين هؤلاء الثلاثة فتعرف مقدار ما انطوت عليه أنفسهم من خبث ، نأتي على ذكر قصة جديدة فيها بعض ما تريد .

جاء دلامة يوماً إلى أبيه وهو في محفل من جيرانه وعشيرته جالس فجلس بين يديه ، ثم أقبل على الجماعة فقال لهم : إن شيخي — كما ترون — قد كبرت سنه ، ورق جلده ، ودق عظامه وبنا إلى حياته حاجة شديدة ، فلا أزال أشير عليه بالشيء يمسك رمقه ويبقي قوته ، فيخالفني فيه . وأنا أسألكم أن تسألوه قضاء حاجة لي أذكرها بحضرتكم فيها صلاح لجسمه ، وبقاء لحياته ، فأسعفوني بمسألته . فقالوا : نفعل حباً وكرامة . ثم أقبلوا على أبي دلامة بألسنتهم وتناولوه بالعتاب حتى رضي وهو ساكت ، فقال : قولوا للخبيث فليقل ما يريد ، فستعلمون أنه لم يأت إلا ببلية . فقالوا له : قل . فقال : إن أبي إنما يقتله كثرة إتيان النساء فتعاونوني عليه حتى أخصيه ، فلن يقطعه عن ذلك غير الخصاء ، فيكون أصح لجسمه ، وأطول لعمره . فعجبوا من ذلك وعلموا أنه إنما أراد أن يعبث بأبيه ويخجله حتى يشيع ذلك عنه فيرتفع له بذلك ذكر ، فضحكوا منه . ثم قالوا لأبي دلامة : فأجب . قال : قد سمعتم أنتم وعرّفتكم أنه لن يأتي بخير . قالوا فما عندك في هذا ؟ قال قد جعلت أمه حكما بيني وبينه فقوموا بنا إليها . فقاموا بأجمعهم فدخلوا إليها ، وقص أبو دلامة القصة عليها وقال لها : حكمتك . فأقبلت على الجماعة فقالت : إن ابني — أصلحه الله — قد نصح أباه وبره ولم يأل جهداً ، وما أنا إلى بقاء أبيه بأحوج مني إلى بقائه ، وهذا أمر لم تقع به تجربة منا ، ولا جرت به عادة لنا ، وما أشك في معرفته بذلك ، فليبدأ بنفسه فليخصها ، فإذا عوفي ورأينا ذلك قد أثر عليه أثراً محموداً استعمله أبوه . فنعر[1] أبوه وجعل يضحك به ، وخجل ابنه وانصرف القوم يضحكون ويعجبون من خبثهم جميعاً واتفاقهم في النصب[2] .

وللقوم الذين شهدوا هذه المحاورة التي تضحك الثكلى أن يعجبوا ما شاءوا ، ولهم أن يروا فيها دليلا على خبث الثلاثة واتفاقهم في مذهب العبث والمجون ، فقد رأينا فيها ولدا يخجل أباه ، وأما تخجل ابنها ، وأبا يوزع خبثه على الاثنين ، فيسمع كلام ابنه غير عيي ولا متناب ، ثم يحتكم إلى زوجته احتكام العالم بما ستقوله ؛ لأن عبث ابنه ينالها كما يناله .

ومن هنا نرى أن أم دلامة — وإن كانت تحب أن تخجل زوجها في بعض الفرص — لم تكن لتخذله دائماً ، فهي تحبه على ما فيه من عبث ومنقصة ، وهو يثق بها في تمام ما يعجز عن إتمامه بنفسه ؛ لأنه عرفها وعرفته ، واستطاع كل منهما أن يستكمل بالآخر مواضع نقصه ، ونقط الضعف فيه !.

(يتبع) صبحي إبراهيم الصالح

(١) نعر : صاح وصوت بخيشومه
(٢) الأغاني ج ١ ص ٢٧٢